نسفوا جدرانها وهدموا أسوارها ونزعوا أحجارها فهم لم يقروا بوجودها ولم يعترفوا بحرمة أهلها ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. فالحجرات رمز لمعالم هذا الدين الشامخ الذي جاء ليصون كرامة الإنسان ويعلي من شأنه ويحفظ له حقوقه وذلك برسم الحدود الفاصلة التي تحجز بين الناس وتحول بينهم وبين التجاوز والعدوان.

* * *

صفات أهل البادية

ومن هنا يظهر التقابل بين الحجرات وبين الأعراب، فالأعراب هم بدو الصحراء تقوم حياتهم على التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ والماء، فهم لايعرفون الاستقرار أو بناء الحجرات بل بيوتهم مصنوعة من جلود الأنعام يحملونها على ظهور الجمال كما قال عز وجل: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾ [النحل: ٨٠] فهم يعيشون في صحراء مترامية الأطراف ولا شيء يحد من اندفاعهم أو يوقفهم عن البغي والعدوان فكل شيء أمامهم مكشوف وبادٍ للعيان فالبَدْوُ من البُدُوِّ والظهور والانكشاف ولذلك فهم لا يعترفون بالحواجز أو الحدود أو الأسوار أو الحجرات. وهكذا فإن لفظ البداوة إنما يكون على النقيض من لفظ «الحجرات» أو لفظ «الحضارة».

ولذلك قال عز وجل: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩٧، ٩٨]، وكلمة «أجدر» الواردة في الآية بمعنى أحق وأولى، نقول: جدير بك أن تفعل كذا أو الأجدر بك أن تفعل كذا أي: الأحق بك والأولى بك أن تفعل كذا ولكنه عز وجل لم يستعمل أولى أو أحق بل قال: ﴿**أَجْدَرُ**﴾ والكلمة مأخوذة من الجدار وهو الحائط

الذي يقوم بين الأشياء ويحجز بعضها عن بعض فهو كالبرزخ أو الحاجز الذي جعله الله بين البحر العاذب والبحر المالح كما قال عز وجل ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] وكقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

فالجدار بهذا الاعتبار في إقامته وبقائه منفعة ومصلحة للناس، ولذلك حينما هَمَّ الجدار بالانقضاض والسقوط قام الخضر عليه السلام بإقامته على الفور كما قال عز وجل: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧] وعلل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

ولكن بالنسبة للأعراب استعمل لفظ «أجدر» وجاء به مقترنًا بعدم العلم بحدود الله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] وفي هذا إشارة إلى أنهم بعدم علمهم بحدود الله وبتعديهم عليها وعدم الوقوف عندها كأنهم نسفوا جدار الدين وأزالوا الحدود التي ينبغي المحافظة عليها.

ولذلك ففي سورة التوبة وبعد أن عاب الله على الأعراب صفاتهم الذميمة وتوعدهم بسبب ما هم عليه من كفر ونفاق ولؤم وجهل وشح وعدم التزام بحدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ فإنه في مقابل ذلك أثنى على المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله وبشرهم بأن لهم الجنة وذكر تسع صفات لهم ختمها بقوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] فقال عز وجل: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] فهم حافظون لحدود الله أي وذلك بالوقوف عندها وعدم تجاوزها وبالمحافظة عليها بعد العلم بها.

فالأعراب حياتهم قائمة على الاندفاع والاقتحام وعلى السلب والنهب وشن

الغارات ولا يعترفون بحرمة المكان وقد ذكر البخاري في «صحيحه» قصة الأعرابي الذي دخل المسجد النبوي وبال فيه حينما أحس أنه يريد قضاء الحاجة دون أن يشعر بحرج أو حياء وأيضًا بينما كان الصحابة رضوان الله عليهم يتهيبون أن يسألوا رسول الله ﷺ عن بعض الأمور فإذا بالأعرابي يأتي مجلس رسول الله ﷺ ويلقي بالسؤال الذي يخطر على باله دون تردد أو تحفُّظ وكان الرسول ﷺ يترفق بهم كثيرًا ويحلم عليهم كما حدث مع الأعرابي الذي بال في المسجد وأراد الصحابة أن يقعوا فيه .

فطبيعة البدو فيها غلظة وجفاء بحكم طبيعة الحياة القاحلة التي يعيشونها في الصحراء من جدب وقحط وما يترتب على ذلك من خشونة العيش وشظف الحياة وفي الحديث الذي رواه أحمد وأصحاب السنن : «**من سكن البادية جفا**» وفي رواية الطبراني : «**من بدا جفا**» أي صار فيه جفاء الأعراب وهي غلظة الطبع وخشونة القول والحديث فيه ذم لمن ترك الحواضر والقرى ورحل للسكنى في الصحراء .

ومن العلماء من لم يجز شهادة البادي على الحاضر وذلك للحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه : «**لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية**»، وعدم صحة شهادته من أجل جفائه وجهله وقلة شهوده لما يقع في الحواضر والأمصار فلا تكون شهادته موضع ثقة أو اعتبار .

كما تكره إمامة أهل البادية لأهل الحضر عند مالك وذلك لجهلهم بالشريعة . كما أن البدو الرحل بحكم تنقلهم الدائم من مكان إلى آخر فإنه لم تتح لهم فرصة الاستقرار المتاحة لأهل المدن ليتلقوا العلم على أيدي العلماء في المساجد والمدارس ولذلك فشا فيهم الجهل والفوضى والطيش ولا سيما أنه لا قانون يحجز بينهم ولا نظام يجمع شتاتهم بل كل واحد منهم يفعل ما بدا له فهذه هي حياة البداوة، فكلمة البادية تعني الأرض المنبسطة التي لا بناء فيها يحول دون الرؤية ويقال لسكان البادية : بدو لأنهم كما ذكرنا من قبل بادون أي ظاهرون لا تجمعهم جدران أو تغلق

عليهم أبواب ولذلك فمن صفاتهم العجلة والاندفاع لأن بيئتهم ليس فيها الحدود أو المعالم ولا تعرف القيود أو الحواجز ومنه قوله عز وجل: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي رأيهم باد أي ظاهر وساذج وغير ناضج.

هذا بخلاف ما يدعو إليه الدين من التثبت والتبين والتمهل والتعقل وتعلم العلم والتحلي بالحلم وتهذيب النفوس وتزكية القلوب وتأصيل الأصول والوقوف عند الحدود ووضع الأحكام والنظم والقوانين التي تكفل للناس حقوقهم وتحفظ لهم حرماتهم.

ولذلك حينما أراد الرسول ﷺ أن يبين للناس أنه آخر الرسل وخاتم النبيين فإنه ضرب مثلاً على ذلك ببناء شامخ اكتمل بنيانه إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه وكان رسول الله ﷺ هو تلك اللبنة الكريمة التي اكتمل بها البنيان ففي حديث البخاري: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وجمَّله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

فقد شبه حقيقة الأديان كلها بالبنيان ذي اللبنات المتراصة والأحجار المتلاصقة، فهو بنيان له حجرات هي أركان هذا الدين وهي معالم الشرع الحنيف وكذلك القرآن فإنه يشبِّه الشيء الذي بلغ النهاية في القوة والمتانة والأصالة بالبنيان كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وشبه السماء بأنها بناء شديد وسقف محفوظ قال عز وجل: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] بل إنه لما ذكر أن أهل الجنة: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وصف تلك الغرف بقوله: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠] فهي كما في حديث المسند مبنية؛ لبنة من ذهب ولبنة من فضة.

وما أجمل التشابه بين حجراته ﷺ المباركة وبين الغرفات الآمنة في جنات الآخرة، فالحجرات مفردها حجرة والغرفات مفردها غرفة والحجرات والغرفات على وزن واحد قال عز وجل: ﴿**فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ [سبأ: ٣٧] وفي الحديث المتفق عليه: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**» وهو المكان الذي بنيت فيه الحجرات الشريفة فهن روضة من رياض الجنة كما في قوله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**﴾ [الشورى: ٢٢].

أما البدو الرحل فهم لا يعرفون البنيان ولا يعيشون في حجرات ولذلك جعل الرسول ﷺ تطاولهم في البنيان من علامات الساعة فحينما سئل عن أماراتها قال في حديث مسلم: «**أن تلد الأمة ربتها و أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**» فحينما تنعكس الأوضاع ويتطاول الأعراب في البنيان فإن هذا من علامات الساعة ونهاية الدنيا كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

وقد استدل العلماء بقول يوسف عليه السلام لأبيه وإخوته: ﴿**وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**﴾ [يوسف: ١٠٠] على تفضيل حياة الحضر على حياة البادية ففي البادية لابد من البحث عن الكلأ والماء والتنقل الدائم من مكان لآخر ولكن في الحضر كل شيء حاضر بين يديك ويأتي إليك حيث أنت مما أدى إلى استقرار الحياة وازدهارها وتقدمها.

كما استدلوا أيضًا بقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى**﴾ [يوسف: ١٠٩] بأن الرسل إنما يكونون من أهل القرى لا من أهل البادية. فأهل الحضر أحلم وأعلم بينما أهل البادية فيهم جفوة وغلظة وفظاظة كما أنهم يغلب عليهم الجهل لبعدهم عن المدن ومراكز العلم فظروف حياتهم القاسية وبيئتهم المجدبة قد تركت أثرها عليهم فلم ترق منهم الحواشي أو تهذب منهم الطباع.

* * *

الصبر من مرادفات العقل

وبعد أن رأينا الانسجام والتطابق بين لفظتي «الحجرات» و«العقل» ولننظر الآن إلى كلمة الصبر في قوله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥] وذلك لنرى التوافق أيضًا بين هذه الكلمة (الصبر) وبين سابقتيها (الحجرات والعقل).

فالصبر لغة هو أيضًا الحبس والمنع والكف من قولهم: (قُتل صبرًا) إذا حبس ومنع عنه الطعام حتى الموت ولذا نهى الرسول ﷺ عن صبر البهائم وتوعد من فعل ذلك وقد دخلت امرأة النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت كما في حديث المسند وأيضًا في حديث الشيخين ونجد هذا المعنى أيضًا في قوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] أي: احبس نفسك مع فقراء المسلمين ولا تترك صحبتهم.

فالصبر: هو حبس النفس على ما تكره ومنعها من اتباع الهوى أو فعل ما لا يليق والصبر بهذا المعنى يلتقي مع معنى كلمة العقل ومعنى كلمة الحجرات فالكلمات الثلاث كأنها تخرج من مشكاة واحدة أو تفيض من معين واحد.

والدليل على ذلك من السياق الكريم أن القياس بعد قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن يقال: «ولو أنهم عقلوا» كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] ثم قال بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فإننا حينما نريد أن ننفي عن الشخص وجود صفة معينة فيه ثم نريد أن نثبتها له فإننا نأتي بنفس الفعل مع أداة الشرط «لو» كأن نقول مثلاً: (فلان لم ينجح، ولو أنه نجح لحصل على الجائزة) ولكننا لو قلنا: (فلان لم ينجح ولو أنه صبر لحصل على الجائزة) فجئنا بـ«صبر» بدلاً من «نجح» لبيان أن النجاح لا بد فيه من الصبر فكلاهما

يأتي بمعنى واحد ولا غنى له عن الآخر.

ولذلك بعد وصف الأعراب بأنهم لا يعقلون لم يقل ربنا: «ولو أنهم عقلوا» بل جاء بدلاً منها بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ للدلالة على أن العقل والصبر معناهما واحد فلا يصبر إلا الإنسان العاقل ولا يصبر إلا الكبير البالغ أما الطفل الصغير الذي لم يبلغ الحلم بعد ولم يدرك فإنه لايستطيع أن يصبر. ولذلك لا يكلف الصغير بالصيام لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الطعام إذا ما اشتهته نفسه أما الكبير فمهما عضه الجوع ورأى أمامه ما لذ وطاب واشتهت نفسه الطعام فإنه يكبح جماحها ويتحكم في هواها ويعينه على ذلك ما لديه من عقل راجح، فمقتضى العقل منع النفس من فعل ما يغضب الله عز وجل ولذلك قيل: «الصبر مُرٌّ لا يتجرعه إلا حُرٌّ».

فهذا المعنى لكلمة «الصبر» يلتقي مع معنى كلمة «العقل» فكلاهما يمنع صاحبه من الاندفاع وراء شهواته أو الاستجابة لأهوائه ولذلك حينما ذمَّ الله علماء بني إسرائيل بسبب ما فعلوه في قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤] فقد عاب عليهم هذا التصرف الغريب مع أنهم لا ينقصهم العلم أو الفطنة أو الذكاء ولكنهم كانوا لا يملكون قوة الإرادة أو قوة العقل التي تمنعهم من اتباع الهوى ولذلك ختم الآية السابقة بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي: أين ذهبت عقولكم وهل تصرفكم هذا يتماشى مع ما يقتضيه العقل السليم؟ فهم قد تصرفوا على النقيض من ذلك وفعلوا خلاف ما يقتضيه العقل ولذلك أنزلهم الله عز وجل منزلة الجاهل الذي ليس له عقل.

كما أنه قال بعدها: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فجاء بالصبر بعد أن تكلم عن العقل ليؤكد الرابطة بينهما. فنفي العقل عن الأعراب في قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم الإتيان بالصبر في موضع العقل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ إنما هو نفي للإرادة القوية التي تمنع صاحبها من الانزلاق والتورط فيما لا يليق، فالأعراب باستعجالهم وعدم صبرهم كان تصرفهم هذا بمثابة الستار الذي حجب العقل عن ممارسة دوره والقيام بتبعاته في توجيه السلوك وضبط التصرفات.

حسب الكرام وازع الأخلاق

وإذا كان هناك شيءٌ ضارٌّ بحياة الناس فإن الدول المتحضرة والأمم الراشدة تصدر القوانين التي تمنع ذلك كشرب الخمر أو تعاطي المخدرات وتعاقب من يفعل ذلك. والإنسان الذي لديه مُسكة من عقل فإنه يمتنع عن ذلك حتى لا يقع تحت طائلة القانون ولكن الإنسان الذي رُزق حظًّا من العقل وافرًا فإنه يمتنع لا خوفًا من القانون أو العقاب فقط ولكن نزولاً على مقتضى العقل السليم.

فحتى لو لم يكن هذا القانون موجودًا أو كان معطلاً أو لم يكن فعل التعاطي مجرَّمًا بحيث كان تعاطي هذا المخدر مباحًا فإن الإنسان العاقل مع ذلك لا يقربه لأنه يعلم بما حباه الله من العقل ما فيه من الضرر البالغ الذي يعود على من يتعاطاه بأسوأ العواقب.

وحتى إذا كان حظه من العقل قليلاً أو ضعف سلطان العقل أمام إغراء الشهوة وضغط الحاجة فإنه يعتصم بما لديه من خلق الصبر فهو يستنفر ما لديه من هذا الخلق العظيم ليظل صامدًا أمام الإغراء، صابرًا على الابتلاء فلا تلين له قناة أو تهتز له إرادة بل يظل صابرًا محتسبًا حتى يجتاز الامتحان بنجاح وسلام.

ولكن هؤلاء الأعراب حينما اصطدموا بالحجرات الشريفة لم يقفوا عند حدهم وحينما رأوا الحواجز ضاقوا بها ذرعًا وأرادوا لهاقلعًا محاولين القفز فوقها أو تسلق جدرانها وأرادوا زحزحتها من أمامهم وتنحيتها عن طريقهم وذلك بأصواتهم العالية حتى ينزل الرسول ﷺ على رأيهم ويخرج إليهم مهرولاً فهم لايريدون سدودًا تقف دون تحقيق أهوائهم أو قيودًا تحول دون إشباع رغباتهم، هم أرادوا أن يعكسوا الأمور، أرادوا أن يستجيب الرسول ﷺ لأصواتهم النشاز التي اخترقت الجدران وشقت الآذان وارتفعت فوق الأسوار، أرادوا بذلك أن ينحني الرسول ﷺ - وحاشاه

ـ أمام هذه العاصفة الهوجاء وأن يخضع لهذه الصورة القبيحة من صور الإرهاب، إرهاب الغوغاء، كما يفعل بعض القادة والزعماء اتقاء لثورة الدهماء أو تملقًا للسوقة ورعاع الناس .

فهؤلاء الأعراب بفعلهم هذا قد تجاوزوا كل الحدود والأعراف ولم يفلح معهم شيء في إيقافهم عند حدودهم سواء أكان هذا الشيء حواجز مادية كالحجرات أو حواجز معنوية أو نفسية أي تنبع من داخلهم كالحواجز العقلية والخلقية، فمقتضيات العقل وأيضًا مقتضيات الأدب كان ينبغي أن تلزم صاحبها بالصبر والكف ولا سيما في مثل هذه المواطن ولكنهم لم يأبهوا بذلك وضربوا به عرض الحائط، فلا جدران الحجرات أوقفتهم ولا قوة العقل منعتهم ولا فضيلة الصبر كفتهم بل تجاوزوا كل الحدود ولم يلتزموا بالأدب مع الرسول ﷺ فالإنسان العاقل ينبغي أن تكون له حدود لا يتجاوزها بأي حال حتى لا يصدر منه إزعاج أو إيذاء للغير بدون وجه حق .

وفعل الأعراب هذا كفعل من أراد أن يأتي عملاً شائنًا في الطريق العام فلم يتورع عن إتيانه بالرغم من وجود رجل الشرطة بعصاه الغليظة كما أنه لم يأبه بنظرات الناس واستنكارهم لتصرفاته القبيحة التي لم تمنعه عنها نفس عفيفة أو بقية من حياء أو أثارة من أخلاق حميدة بل فعل فعلته الشنيعة وكل هذه الموانع والحواجز لم تجد معه فتيلاً .

قال يحيى بن معين: لوكان الكذب مباحًا لكانت مروءة الشافعي مانعة له أن يكذب فالإنسان السوي يكفيه وازع من عقل راجح أو خلق راشد ليكفه عن فعل ما لا يليق أو يمنعه عن كل تصرف معيب وعن البعد عن سفاسف الأمور .

وذكر الخطيب البغدادي في «جامعه»: هذه القصة عن إسماعيل عن موسى قال: دخلنا على أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ونحن جميعًا من أهل الكوفة فحدثنا بسبعة أحاديث فاستزدناه، فقال: «من كان له دين فلينصرف»، فانصرفت جماعة وبقيت جماعة أنا فيهم ثم قال: «من كان له حياء فلينصرف»، فانصرفت

جماعة وبقيت جماعة أنا فيهم فقال لغلمانه: «أخرجوهم فإنه لا بقاء على قوم لا دين لهم ولا حياء ولا مروءة».

فحتى لو أُعطي المرء من العقل شيئًا قليلاً بحيث لم يمكِّنه عقله من مواصلة الدراسة والحصول على أرقى الشهادات العلمية بل تعلم حرفة يدوية يقتات منها فلا عذر له في فعل ما لا يليق إذ ينبغي أن يحجزه دينه وخلقه من غشيان المعاصي والمحرمات أو إيذاء الناس بغير حق فهو يعلم ذلك من تلقاء نفسه ويشعر به بوازع من فطرته التي أودعها الله في قلبه كما أوضحنا ذلك عند تفسير قوله عز وجل: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢].

* * *

إيذاء وإخراج بإكراه

وهناك أمر خطير تشير إليه الآيات من بعيد فهؤلاء الأعراب لوأنهم بأصواتهم المزعجة وما أحدثوه من ضوضاء مقلقة اضطروا الرسول ﷺ للخروج إليهم ولم يتركوه حتى يخرج هو من تلقاء نفسه وفي الوقت الذي يناسبه لكانوا هم الذين أخرجوه من بيته على غير رغبة منه بل رغمًا عنه، فإنهم بذلك يتساوى فعلهم هذا ويشبه فعل كفار مكة الذين أخرجوه بغير حق من قريته التي ولد ونشأ فيها، فيكونون بذلك - ومن حيث لا يشعرون - قد وقعوا في ذنب عظيم يعرضهم للهلاك وأن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون.

وقد ورد الوعيد الشديد لمن يفعل ذلك كما في قوله عز وجل: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٣] فهناك فرق كبير بين الخروج بالرضا والرغبة وبين الإخراج بالإكراه والقوة ففعل الخروج ينبغي أن يكون منسوبًا إلى الرسول ﷺ يخرج وقتما يشاء هو ولا يكون منسوبًا إليهم

يخرج وقتما يشاءون هم .

وما أعطى الله الإذن للمسلمين بقتال أعدائهم الكفار لمجرد كفرهم فقط لكن بسبب ظلمهم الذي تمثل في إخراجهم للمؤمنين من أوطانهم بغير حق أو ذنب إلا الإيمان بالله عز وجل قال جل جلاله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] . ولا أدل من خطورة الأمر أن جعل الله الإخراج من الديار مساويًا للقتل وإزهاق الأرواح كما في قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[النساء: ٦٦] وقوله أيضًا : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

والمسلم الذي يحب الله ورسوله ﷺ لا يتصور منه صدور تصرف فيه إزعاج أو إيذاء للرسول ﷺ، فبأي حق يفعل ذلك وقد قال الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فهو يخشى أن يقع تحت قوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] . وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقوله أيضًا بعدها في شأن إيذاء المؤمنين والمؤمنات : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقوله ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزة : «من آذى لي وليًّا فقد آذنته بحرب» هذا بالنسبة للولي فما بالك بالنبي؟

وانظر إلى دقة وروعة الأداء القرآني في قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[الحجرات: ٥] فهو لم يقل (ولو أنهم صبروا حتي تخرج لكان خيراً لهم) بل قال : ﴿إِلَيْهِمْ﴾ فجاء بحرف الجر «إلى» والذي يفيد الغاية وذلك للفت الأنظار إلى أنه ﷺ لو خرج إلى غاية أخرى لكان عليهم أن يصبروا حتى يكون

خروجه إليهم أو من أجلهم.

أي ما كان لهم أن يستعجلوه بل كان ينبغي أن يجعلوا تصرفه هو القاعدة والأساس وأن يتركوا له تمام الحرية في الخروج أو البقاء ففعله هو الأصل الذي تقاس عليه سائر الأفعال والتصرفات فله أن يفعل ما يشاء وأن يتكيفوا هم معه وأن يرضوا بما فعل أو قسم أو حكم فهو لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصواب يقول عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ويقول أيضًا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولذلك أطلق الله يده فقال في شأن تعامله مع أزواجه وقسمته بينهن: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الاحزاب: ٥١] حتى إن السيدة عائشة قالت كما في «صحيح البخاري» عندما نزلت هذه الآية: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك» إذ رفع عنه الحرج في ترك القسمة بين نسائه فيقدم من شاء ويؤخر من شاء ويجامع من شاء ويترك من شاء ومع ذلك فقد كان ﷺ يقسم لهن فهو لا يفعل أو يترك إلا لعلة أو حكمة.

وانظر إلى قوله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآية بسبب أن الناس كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن رسوله ﷺ فأنزل هذه الآية فلما نزلت كف الناس». فقد كان كل مسلم يود أن يخلو برسول الله ﷺ ويدنو منه ويكلمه والرسول ﷺ بشر لا يتسع وقته لكل أحد كما أنه مشغول بمصالح الأمة وأعباء الدعوة فضلاً عن القيام بحوائج أهله.

وكان الرسول ﷺ ليس من عادته أن يحتجب عن الناس ولكن هناك أوقاتًا كان يخلد فيها إلى الراحة أو القيام بحقوق أهله أو بمهمات نفسه فكان نداؤه وإزعاجه واستعجاله بالخروج من سوء الأدب الذي يتنافى مع مقامه الكريم.

ولذلك كان ينبغي أن يجعلوا الرسول ﷺ سابقًا لهم وأن يكونوا تبعًا له، يقول عز وجل: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ويقول أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الاحزاب: ٣٦] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

* * *

وأن تصبروا خير لكم

فقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فإنه جعل خروجه غاية ينتهي إليها صبرهم ولو أنهم وقفوا يومهم كله بل شهرهم وعمرهم كله حتى يكون خروجه إليهم لكان خيرًا لهم أرأيت إلى حرمة المرور بين يدي المصلي؟ فهو من الكبائر ففي الحديث المتفق عليه: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه**» وقال راوي الحديث وهو عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «لا أدري أقال أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة» وبذلك فالحديث يدل على منع المرور مطلقًا بل يقف حتى يفرغ المصلي من صلاته ومناجاته لربه.

وحديث البزار في «مسنده» بسند صحيح يحدد لنا هذه المدة: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه** - أي: من الإثم - **لكان أن يقوم أربعين خريفًا** - أي: سنة - **خيرًا له من أن يمر بين يديه**». ولبيان خطورة الأمر فقد جاء في الحديث المتفق

عليه: «كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يصلي يوم الجمعة إلى شيء يستره من الناس إذ دخل شاب من بني أبي معيط أراد أن يجتاز بين يديه فدفعه أبو سعيد في نحره فنظر الشاب فلم يجد مساغًا (ممرًا) إلا بين يدي أبي سعيد فعاد ليجتاز فدفعه في نحره أشد من الدفعة الأولى فمثل قائمًا ونال من أبي سعيد - أي: شتمه - ثم تزاحم الناس فدخل على مروان بن الحكم وكان والي المدينة فشكا إليه ما لقي، ودخل أبو سعيد على مروان فقال له مروان: مالك ولابن أخيك (أي: في الإسلام) جاء يشكوك؟ فقال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان**». وفي رواية أبي داود: أن شابًا من قريش مر بين يدي أبي سعيد وهو يصلي فدفعه أبو سعيد ثم عاد فدفعه ثم عاد فدفعه (أي: ثلاث مرات).

ويراد بالمقاتلة الواردة في الحديث: دفع أشد من الدفع الأول فإن أبى فبالأشد ولو أدى إلى قتله فإن قتله فلا شيء عليه لأن الشارع أباح له مقاتلته وشبَّهه بالشيطان لأن الشيطان هو الذي يحمله على ذلك، والمقاتلة المباحة لا ضمان فيها. كما أن المؤمن الحق يلين ويستجيب إذا ذكَّره أحد بخطئه، وذلك بخلاف الشيطان في تمرده وعتوه.

ومثل ذلك: مَنْ نظر في بيت إنسان من ثقب أو شق باب أو نحو ذلك واطلع على حرمات أهل البيت فقأوا عينه فلا ضمان عليهم لأنه ظالم ومعتد وخائن. وفي حديث مسلم: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقأوا عينه**» وفي الحديث المتفق عليه: «**لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذنك فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح**» وفي حديث أحمد والنسائي: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص**».

ففعلهم حلال لا شيء عليهم فيه وعينه هدر لا دية فيها ولا قصاص. قال البخاري في ترجمة هذا الحديث (باب: من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له).

وقد بيَّن البخاري في «الأدب المفرد» العلة من ذلك فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لامرئ مسلم أن ينظر إلى جوف بيت**

حتى يستأذن فإن فعل فقد دخل» فهو لم يدخل بشخصه بل دخل بعينه ورأىٰ ما لا يحل له.

وروىٰ الشيخان أن رجلاً اطلع من حُجر في باب النبي ﷺ ومعه مدرىٰ يحك به رأسه فقال له: «**لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**». والمدرىٰ: المشط يرجِّل به شعره وفي رواية: أنه كان معه مِشْقص وهو نصل السهم، والحُجر: الثقب في الحائط أو الباب. والعلة من الاستئذان: ألا تقع العين علىٰ العورات التي لا يحل لها رؤيتها، فالبيوت لها حرمة ينبغي ألا تنتهك أو تستباح.

بل إن الشرع قد ألزم الرجل أن يستأذن علىٰ أمه وأخته وبناته البالغات لئلا تقع عينه علي عورة لا يحل له النظر إليها فقد روىٰ مالك في «الموطأ» أن رجلاً سأل النبيﷺ: أأستأذن علىٰ أمي؟ فقال له: «**نعم**»، فقال: إنها معي في البيت وإني خادمها(أي: أنا الذي أقوم بخدمتها ورعايتها)، فقال له: «**أتحب أن تراها عريانة؟**» فقال: لا، قال: «**فاستأذن عليها**».

وهكذا كما رأينا أنه يحل للمرء أن يفقأ عين من يطلع علىٰ حرماته بغير إذنه فكذلك يحل للمصلي أن يمنع من يمر بين يديه بل ويقاتل مَنْ يصرُّ علىٰ ذلك فالموضع الذي يسجد عليه المصلي أصبح حمىٰ له حرمة لا يجوز لأحد أن يقتحمه، فما بالك بحرمة النبيﷺ، وإذا كان للمار بين يدي المصلي أن يقف أربعين سنة أو أربعين شهراً أو أربعين يوماً حتىٰ يفرغ المصلي من صلاته فكيف لهؤلاء الأعراب لا يصبرون علىٰ الوقوف أمام حجراته الشريفة ﷺ ساعة من نهار؟

ولو أنهم وقفوا الدهر كله حتىٰ قيام الساعة وفتح باب الشفاعة فليس ذلك منهم بكثير فهو الشفيع يوم القيامة حين يلجأ الناس إلىٰ الأنبياء؛ ليشفعوا لهم عند ربهم فلا ينالون بغيتهم إلا عند خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فلولا شفاعته لطال وقوف الناس ولكن بفضل شفاعته يكون الفصل بين الناس.

ثم هؤلاء الأعراب الذين رفعوا أصواتهم من وراء الحجرات ليحملوه علىٰ الخروج إليهم ما أدراهم أنه كان يصلي أو في خلوة مع ربه فكيف يقطعون عليه

مناجاته مع ربه؟! أو يقتحمون عليه خلوته وهو الذي في طاعة دائمة وعبادة موصولة حتى وإن نام فإنه تنام عينه ولا ينام قلبه كما في حديث البخاري، ولا يغفل عن ذكر ربه وكان يواصل في الصيام أي: يصوم يومين أو أكثر ولا يأكل أو يشرب بينهما فلما أراد أصحابه أن يقلدوه في ذلك نهاهم عن الوصال وقال كما في حديث الشيخين: «**إني لست مثلكم أو كهيئة أحدكم إنما أبيت يطعمني ربي ويسقيني**».

وما الذي يؤمنهم أن الوحي يتنزل عليه في تلك اللحظة وأن جبريل عليه السلام يهبط بآيات القرآن؟ هؤلاء الذين ارتفعت أصواتهم وتعالى صياحهم ألا يخافون أن يكونوا مثل كفار مكة الذين قال الله في شأنهم: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧] هؤلاء الذين نادوه من وراء الحجرات ومنوا عليه أنهم دخلوا في الإسلام دون قتال كما قاتله غيرهم. هؤلاء ما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك إلا خائفين أن ينزل عليهم غضب من الله أو عذاب من السماء لتعديهم حدود الأدب مع رسول الله ﷺ.

ألم يروا أمام أعينهم الحجرات قد بنيت لحفظ الحرمات؟ ألم يكفهم هذا أم كان ينبغي أن يكون هناك حراس تمنع الناس من الدخول وحتى من مجرد الاقتراب؟ إي وربي كان الأولى بهم أن يقفوا أمام الحجرات في أدب واحتشام ولو طال به المقام.

* * *

نماذج من الأدب الرفيع

وانظر إلى رد فعل الصحابة وتجاوبهم مع آيات القرآن فقد روى مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ إلى آخر الآية [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: «أنا من أهل النار» واحتبس عن النبي ﷺ فسأل عنه سعدَ بن معاذ

فقال: «**يا أبا عمرو ما شأن ثابت؟! أشتكى؟**» قال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوىٰ»، فأتاه سعد فذكر له قول النبي ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمت أني من أرفعكم صوتًا علىٰ رسول الله فأنا من أهل النار؛ فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال: «**بل هو من أهل الجنة**».

وفي رواية البخاري عن خطيب الأنصار(ثابت بن قيس) أنه غاب عن مجلس النبي ﷺ فافتقده فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه(خبره) فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عملي وإني من أهل النار، فأتىٰ الرجل النبي فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال: «**اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة**».

وذكر الحاكم في «مستدركه» والبزار في «مسنده» بسند صحيح أنه لما نزل قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحجرات: ٣].

قال أبو بكر: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتىٰ ألقىٰ الله عز وجل.

وروىٰ البخاري في «صحيحه» أن عمر بن الخطاب كان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتىٰ يستفهمه فقد كان عمر يخفض صوته وهو يخاطب النبي ﷺ حتىٰ يطلب منه أن يعيد ما قال حتىٰ يفهم كلامه.

وروىٰ الحاكم بإسناد صحيح ووافقه الذهبي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك يابن عباس أترىٰ الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من ترىٰ؟ فترك ذلك وأقبلت

أنا أسأل أصحاب النبي ﷺ فإنه كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل في الظهيرة ، فأتوسد ردائي على بابه ، فتسفي الريح عليَّ الترابَ حتى ينتهي من مقيله، ويخرج فيراني فيقول : يا بن عم رسول الله ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول : لا ، أنت أحق أن أسعى إليك فأسأله الحديث وأتعلم منه ، فبقي الرجل من الأنصار حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ فقال : هذا الفتى أعقل مني .

وقد اقتدى سلفنا الصالح بهذا الخلق الكريم قال أبو عبيدة القاسم بن سلام : ما دققت الباب على عالم قط ، كنت أصبر حتى يخرج ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾ [الحجرات: ٥] والأمثلة على هذا الأدب الرفيع كثيرة ويكفينا ما رواه البخاري في «الأدب المفرد» والحاكم عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافير .

وانظر إلى ردود الفعل السريعة لهذه الآيات الكريمة من سورة الحجرات فقد كان كل صحابي يظن أنها نزلت في حقه وأنه هو المُخاطَب بها في المقام الأول ولذا انفعلت قلوبهم بها وانتفعوا بما فيها من الأدب والخير الكثير بخلاف مَن يسمع الآيات ولا يظن أنه المعنيُّ بها بل غيره هو المقصود والمكلف بما ورد فيها فيخرج منها صفر اليدين لم يكتسب أدبًا أو علمًا ولم ينل أجرًا ولا خيرًا .

* * *

الحجرات الشريفة مبناها ومغزاها

وفي وصف حجرات النبي ﷺ كما ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» عن السهيلي في «الروض الأنف» أنها كانت مبنية من جريد النخل عليه الطين بعضها من حجارة مرصوصة فوق بعض والسقف من جريد النخل وكانت الأبواب تقرع بالأيدي ليس عليها حلق .

وقال الحسن البصري وكانت أمه مولاة لأم سلمة رضي الله عنها : لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي وأنا غلام فقد كان بناؤها متواضعًا وبسيطًا.

وذكر البخاري في «صحيحه» باب: التطاول في البنيان أن مساحة الحجرة الواحدة عرضًا من باب الحجرة إلى داخل البيت حوالي ثلاثة أمتار ونصف المتر والطول يبلغ خمسة أمتار وعرض الحجرة حوالي أربعة أمتار.

وليس في تلك البيوت من متاع الدنيا شيء يذكر فعن عائشة كما في حديث الشيخين: «أنه كان يمر ثلاثة أهلة وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار» وفي البخاري عن عائشة: «أن فراش رسول الله ﷺ كان من أُدم (جلد) حشوُه ليف» وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض».

ولما جاء رجل إلى النبي ﷺ كما في حديث الشيخين فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: «والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء» ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: «لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء».

وبنفس البساطة بنى مسجده المبارك فقد كان بناؤه من اللبن وسقفه الجريد وعمده جذوع النخل وأرضه من الحصى والرمل ولكنه خرَّج رجالاً كانوا مصابيح للهدى فتحوا الدنيا ونشروا النور في العالمين. ولو شاء لجعل بيوته قصوراً فارهة ويزينها بالذهب والفضة ولكن يكفيها شرفًا أن آيات الوحي تتنزل فيها كما قال عز وجل مخاطبًا نساء النبي ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقد هدمت بيوت نساء النبي في عهد الوليد بن عبد الملك وأدخلت في المسجد النبوي لتوسعته.

قال إمام التابعين سعيد بن المسيب: (والله لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ النشء من أهل المدينة ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته فيكون ذلك مما يزهِّد الناس في التكاثر والتفاخر) .

فالحجرات الشريفة رمز لهذا الدين بما فيه من فرائض ينبغي ألا تضيع وحرمات لا ينبغي أن تنتهك وشرائع ينبغي أن تحفظ وحدود ينبغي ألا يعتدى عليها بل ترعى وتصان، ففي الحديث الذي رواه البيهقي والطبراني والدارقطني: « **إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها**» .

فقوله ﷺ : «**وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها**» فالحدود: هي الحرمات التي حرمها الله وهي أيضًا: العقوبات التي جعلها لمن اعتدى على هذه الحرمات فالحد: هو الفاصل بين الحلال والحرام والممنوع تجاوزه لئلا يقع الإنسان فيما حرم الله.

وأصل الحد: المنع ومنه: الحدود الشرعية في العقوبات لأنها عقوبات مقدرة أي: لها مقادير محددة لزجر الناس ومنعهم من اقتراف ما حرم الله . فحد القاذف ثمانون جلدة كما قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**﴾ [النور: ٤] .

فبيوت النبي ﷺ وحجراته تجسيد لمعالم الإسلام ورمز للحدود والأحكام وليست لكل طارق كما ظن الأعراب وليست كلأً مباحًا ولا أرضًا مشاعًا أومجلسًا مفتوحًا أو كتابًا منشوراً بل حجراً محجوراً . وحمى محفوظًا وكنزاً مصونًا ولؤلؤاً مكنونًا وخدراً مخبوءاً وحجابًا مستوراً وقدراً مقدوراً .

فهي حمى حرام وركن لا يرام فما حرم الله حمى لا يُرعى وما أحل فهو مرعى لا يحمى . فهي روضة من رياض الجنة يرتع فيها المحبون وينهلون من رحيقها إلى يوم الدين .

واختيار لفظ «الحجرات» اسمًا لهذه السورة الكريمة لم يأت عفوًا بدون قصد بل لعلة حكيمة فالحجرات الشريفة إنما هي - كما قلنا من قبل - رمز لهذا الدين العظيم وتجسيد لتعاليمه الخالدة ومبادئه السامية، ولا نقول ذلك من باب البلاغة أو المجاز بل هو من باب الحقيقة التي لا مبالغة فيها أو افتراء.

* * *

من الأسرار الكامنة في الحجرات المباركة

فعدد حجرات نسائه التسع اللاتي مات عنهن هو نفس عدد آيات النهي الواردة في سورة «الحجرات» وأتكلم عن النهي بالذات لأن سورة «الحجرات» كما بينا من قبل تعنى بجانب الترك والكف والمنع وهذا واضح من اسمها فـ«الحجرات» كما ذكرنا من الحجر وهو المنع والكف ولذلك وبعد أن ذكر الله هذه النواهي قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أي: من اتقى هذه المحظورات واجتنب هذه المحرمات فهو المكرم عند الله، فهي نواهٍ ينبغي اتقاؤها والابتعاد عن حماها حتى ينال المؤمن دار الكرامة عند الله يوم القيامة.

والنهي: هو طلب الكفِّ عن الشيء على جهة الاستعلاء والإلزام، ومعنى الاستعلاء: أن يكون الآمر أعلى من المأمور أو المخاطب وأرفع منه شأنًا وقد يخرج النهي إلى معانٍ أخرى: كالتهديد والتوبيخ أو النصح أو الالتماس غير أن صيغ النهي الواردة في سورة «الحجرات» تفيد الكف عن هذه الأفعال والمحظورات على وجه الإلزام.

والنهي له صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية مثل(لا تكذب أو لا تكذبوا) وصيغ النهي الواردة في سورة «الحجرات» عددها كما ذكرنا تسعة وسأذكر كل نهي بين قوسين وبعده رقم الآية التي ورد فيها من سورة «الحجرات» وحسب ترتيبها في السورة الكريمة وهي كالآتي:

١ ـ ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١]

٢ ـ ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢]

٣ ـ ﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [الحجرات: ٣]

٤ ـ ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات: ١١]

٥ ـ ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١١]

٦ ـ ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ [الحجرات: ١١]

٧ ـ ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢]

٨ ـ ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢]

٩ ـ ﴿ لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٧] .

وسنلاحظ أن عدد آيات النهي هو تسع وهو نفس عدد حجراته الشريفة وعدد نسائه اللاتي مات عنهن وسأورد أيضًا أسماء أزواج النبي ﷺ حسب ترتيب حجراتهن اللاتي كن يقعن في الجهة الشرقية من المسجد النبوي الشريف وسنبدأ بالجهة الجنوبية للمسجد حيث تقع القبلة حتى نصل إلى الجهة الشمالية للمسجد وهن كالآتي:

١ ـ **حجرة السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب** وكانت حجرتها تتميز عن سائر الحجرات الشريفة أنها كانت في المقدمة في الجنوب الشرقي.

٢ ـ **حجرة السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق** وهي أقرب الحجرات إلى القبلة وهي التي توفي فيها الرسول ﷺ ودفن فيها.

٣ ـ **حجرة السيدة سودة بنت زمعة** وهي بجوار حجرة السيدة عائشة وعلى نفس هيئتها وهي أول الحجرات بناءً فقد بُنيت مع المسجد النبوي الشريف، إذ هي الوحيدة من زوجاته التي عاشت معه في مكة عند زواجه بها وذلك بعد وفاة السيدة خديجة؛ لتقوم برعاية أولاده وعاشت معه ثلاث سنوات بمكة ثم هاجرت وعاشت

معه في المدينة.

٤ ـ **حجرة السيدة أم سلمة(هند بنت أبي أمية)** وكانت من قبلُ حجرةَ السيدة زينب بنت خزيمة التي تعرف بـ «أم المساكين» لإحسانها إليهم وقد توفيت بعد زواجه بها بأشهر قليلة وهي الوحيدة التي توفيت في حياته وصلىٰ عليها ودفنت بالبقيع بالمدينة المنورة وذلك في العام الرابع من الهجرة الشريفة وبعد وفاتها تزوج من أم سلمة وأسكنها مكانها.

٥ ـ **حجرة السيدة زينب بنت جحش.**

٦ ـ **حجرة السيدة جويرية بنت الحارث.**

٧ ـ **حجرة السيدة أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان).**

٨ ـ **حجرة السيدة صفية بنت حيي.**

٩ ـ **حجرة السيدة ميمونة بنت الحارث.**

فهذه هي حجرات نساء النبي ـ رضي الله عنهن ـ أمهات المؤمنين كما قال عز وجل: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ [الاحزاب:٦] أي: أمهاتهم في حرمة النكاح والبر والتعظيم والإجلال هذا فضلاً عن أنه لا يحل النظر إليهن أو الخلوة بهن كما يحدث مع سائر الأمهات ولذلك ضرب الله عليهن الحجاب كما في قوله عز وجل: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الاحزاب: ٥٣]، وبهذا تأكدت الحرمة في حقهنّ فهي بذلك آكد وأشد.

ونحن حين نقول: «حَرَم الرسول ﷺ» فإننا نقصد المسجد النبوي الشريف فهو حرم كحرم مكة وفي الحديث المتفق عليه: «**إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة**»، ولذلك فنحن نقول: «الحرم المدني» كما نقول: «الحرم المكي» وحرمُه أيضًا حجراته وأزواجه فنحن نقول: حرم الرجل أي: أهله ممن يقاتل عنه ويحميه، فكل ذلك (مسجده وحجراته وأزواجه) له حرمة لا ينبغي أن تنتهك أو تمتهن أو تمس أو

تستباح بل ينبغي أن تمنع وتحفظ وتحمى وتصان وكما أن نساءه لسن كأحد من النساء ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [الاحزاب: ٣٢] فكذلك حجراته ليست كسائر الحجرات وحسبك أنه كان ينزل فيهن وحي السماء.

ولعلك تعجب إن علمت أن عدد صيغ الأمر أيضًا الواردة في سورة «الحجرات» هو تسع وهو نفسه عدد صيغ النهي الواردة في سورة «الحجرات» والتي ذكرناها بنصِّها منذ قليل وهو نفس عدد الحجرات الشريفة فالعدد في كل ذلك هو تسعة.

والأمر: هو طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام وقد يخرج إلى معان أخرى ولكن الأوامر في الآيات الواردة في سورة «الحجرات» وردت على المعنى الأصلي إذ إن سورة «الحجرات» مدنية غايتها التشريع والالتزام بأوامر الله.

وهي حسب ترتيب ورودها في السورة الكريمة (وذلك بعد حذف المكرر، فمثلاً الأمر بتقوى الله (واتقوا الله) ورد ثلاث مرات في سورة «الحجرات»)، وكذلك الأمر بالإصلاح (فأصلحوا) ورد في السورة ثلاث مرات، وهذه الأوامر هي:

١ـ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [الحجرات: ١].

٢ ـ ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦].

٣ ـ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٧].

٤ ـ ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات: ٩].

٥ ـ ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ﴾[الحجرات: ٩].

٦ ـ ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾[الحجرات: ٩].

٧ ـ ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾[الحجرات: ١٢].

٨ ـ ﴿ قُلْ ﴾[الحجرات: ١٤]. وهذا الأمر في حق الرسول ﷺ فهو مأمور بتبليغ ما أمره ربه.

٩ـ ﴿ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[الحجرات: ١٤].

وما الدين إلا أوامر ينبغي أن تؤتى وتفعل ونواهٍ ينبغي أن تتقى وتترك، فعدد الأوامر تسعة وعدد النواهي تسعة وأيضًا عدد الحجرات تسع وعدد نسائه اللاتي كن يسكن تلك الحجرات ومات عنهن أيضًا تسع وكل ما سبق هو محارم ينبغي أن تحفظ وتصان وحرمات ينبغي أن تكون في موضع الاحترام والإجلال وهذا التوافق العددي شأنه عجيب ولكن لا عجب فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

* * *

الحجرات تجسيد لمبادئ الدين

ففعلاً هذه الحجرات الشامخة هي رمز لتعاليم هذا الدين وقيمه الباقية تلك التي جسدتها الآيات الكريمة لسورة «الحجرات» التي نزلت بالمدينة وبما حوته من النواهي والأوامر الحكيمة، ففي الحديث المتفق عليه: أن الرسول ﷺ قال للأنصار أهل المدينة لما فتحت مكة فخافوا أن يتركهم ويبقى فيها: «**المحيا محياكم والممات مماتكم**».

وبالفعل عاش بين أظهرهم ومات ودفن في ثرى مدينتهم وبقي فيها جسده الشريف فقد حرم اللَّه على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولتبقى حجرته التي دفن فيها وهي حجرة السيدة عائشة وهي إحدى الحجرات التسع التي سميت باسمها سورة «الحجرات» وهي الآن تقع في «المقصورة» التي يقف فيها الزائر أمام القبر الشريف وبجواره قبرا صاحبيه أبي بكر وعمر اللذين حميا حوزة الدين ورفعا قواعده وثبتا قوائمه ووطدا دعائمه أي: وليبقى مسجده الشريف تشد إليه الرحال ويقصده المسلمون للصلاة فيه، فالصلاة فيه تعدل ألف صلاة فيما سواه - إلا المسجد الحرام - وأيضًا للسلام على رسول اللَّه ﷺ وعلى صاحبيه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. ولتبقى هذه الحجرة الشريفة منارة هادية وشاهدة تذكرنا بدولة الإسلام

الفتية التي كسرت شوكة الكفر في «بدر» والتي ارتفعت راياتها من فوق هذه الأرض المباركة وشع نورها من هذه الحجرات الطاهرة والتي انطلق خلفاؤه من بعده ينشرون هذا النور الذي عم ضياؤه ربوع العالمين.

وستبقى هذه الحجرات الشريفة رموزها حية في قلوبنا وجذوتها مضيئة في نفوسنا تشحذ هممنا وتقوي عزمنا وتنير دربنا وستظل لنا مصدر إلهام لإعادة مجد الإسلام فالمدينة هي مأرز (ملجأ) الإيمان في كل زمان ومكان وهي دار الهجرة التي أوى ويأوي إليها أهل الإيمان فقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها**».

فهي جُحر الإسلام الذي ضم هذه الحجرات وهي كهف الإيمان ببقائها رمزاً خالداً وذخراً باقياً على مر العصور والأجيال، فهي منذ أن احتضنت الإسلام ورفرف فوقها علم الإيمان ـ لم يفارقها أو تفارقه لحظة من ليل أو نهار قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

* * *

سؤال وجواب

وقد يعترض قائل فيقول: إنكم قلتم إن صيغ النهي تسعة وهي نفس عدد الحجرات الشريفة ولكن عدد صيغ النهي التي وردت في الآيات قبل قوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣] هو ثمان صيغ ينبغي على المرء اتقاؤها واجتنابها حتى يكون من المكرمين يوم القيامة فإذن هي ثمان صيغ وليست تسعًا، وأما الصيغة التاسعة التي أكملتم بها الصيغ الثمانية فهي قوله: ﴿**قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ**

إِسْلامَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧] فإنها جاءت بعد قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] كما أنها ليست خاصة بالمؤمنين ولكنها جاءت في حق الأعراب الذين ادَّعوا الإيمان فكذبهم الله في زعمهم ونفى عنهم صفة الإيمان وأثبت لهم الإسلام كما في قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

إذن فالصيغ الخاصة بالمؤمنين التي جاءت بعد النداءات الخمسة التي خوطب بها المؤمنون في سورة «الحجرات» هي ثمانية وليست تسعًا بعدد الحجرات التسع كما قلتم.

ونجيبُ على ذلك فنقول: إنك بإمكانك أن تضيف إلى تلك الصيغ الثمانية صيغة أخرى وهي قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] وهي واردة في حق المؤمنين وجاءت قبل قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فكلمة: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ وإن كانت صيغة أمر إلا أن معناها النهي كأنه قال: (يا أيها الذين آمنوا لا تسيئوا الظن بإخوانكم المؤمنين) ولا سيما أنه جاء بعدها صيغتان للنهي معطوفتين عليها وهما قوله عز وجل: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾. كما أن الاجتناب إنما هو من صيغ النهي القوية فهو لا يأتي في القرآن إلا في تحريم الشرك وفي تحريم بعض الكبائر مثل شهادة الزور والأزلام والأنصاب. يقول عز وجل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وحتى صيغ الأمر الواردة في السورة «سورة الحجرات» فإنها لم يأتِ أكثرها لغاية الأمر والطلب بل جاءت لخدمة صيغ النهي ولتقوية جانب الترك والاتقاء والاجتناب والذي هو المقصد الأساسي للسورة والذي جاءت آيات السورة لتحريم هذه الأمور

المنهي عنها وتنفير الناس منها .

كما أن هذه الآية قد ضمت بين دفتيها ثلاثة محظورات وهي الظن السيئ والتجسس والغيبة وكلها يجمعها رباط واحد وكلها يفضي بعضها إلى بعض فالظن السيئ يحمل صاحبه على أن يتجسس ويبحث عن العورات أو عما ستر عنه من العيوب حتى يتأكد أنه محق في ظنونه ثم بعد التأكد من ظنه السيئ فإنه يبدأ في الغيبة وهتك أعراض الناس، فهي إذن ثلاثة أمور منهي عنها أوردها الله في آية واحدة لا ينبغي الفصل بينها وحتى إن اختلفت الصيغة الأولى وهي قوله عز وجل: ﴿ اجْتَنِبُوا ﴾ عن الصيغتين الثانية والثالثة وهي: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾، ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فإن ذلك من باب التنوع والتفنن في القول وكسر الرتابة ولكن يبقى الجامع المشترك بينها هو النهي والحظر.

* * *

السر في تكرار الأمر بالتقوى

وانظر أيضًا في ذلك إلى قوله عز وجل في أول السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فقد جاء بعده مباشرة قوله عز وجل والذي ختمت به الآية: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١]. ولعلك تلاحظ تكرر الأمر بالتقوى أكثر من مرة في ثنايا السورة الكريمة كقوله عز وجل بعد الاقتتال الذي حدث بين طائفتين من المؤمنين: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله أيضًا بعد النهي عن سوء الظن والتجسس والغيبة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

فالأمر بالتقوى لابد منه، ولابد أن يكون مصاحبًا لتلك النواهي فتقوى الله هي التي تعين المرء على ترك المحرمات. فقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ هو صيغة أمر ولكن